روحانية المادة أو مادية الروح

بقلم :
عبدالعزيز
بنعبدالله

واجه العلم منذ قرون مشكلا اكتمل غموضه فأصبح اليوم يجد حلا تطرد معالمه مع الايام وهو مشكل له مساس مباشر بنقطة جوهرية من المعرفة هي وجود ازدواجية بين الذاتية والموضوعية ووحدة سيكولوجية فيزيائية بين العالم والانسان فكنه هذه المادة قد بدأ يتراءى بين غضونه فجوات تعبر عن حقيقة الكائن السيكولوجي .

فقد صدر كتاب للعالم الذائع الصيت (روبير لنسن Robert linosen) بعنوان «روحانية المادة» بتقديم احد كبار أساتذة كلية العلوم بجامعة باريس والمدرسة العليا للكيمياء بفرنسا وهو شيخه (روبير تورنير Robert Tournaire) فقد حلل صاحب الكتاب . في دراسة مقارنة العلاقة بين الروح والمادة وحقيقة الزمن وطبيعة أبعاده الكونية مما حدا بعض العلماء الى القيام بتطوير ملموس للعلوم الفيزيائية والبيولوجية والسيكولوجية طوال نفس القرن ضعضع بعض المفاهيم التقليدية وكشف عن ضرورة إعادة النظر جذريا في مدركات توارثتها الأجيال وبذلك تزعزعت من أساسها فكرة التعارض الكلاسيكي بين الروح والمادة وهي الفكرة التي لم تعد ترتكز على قاعدة علمية مكينة . إثر البحوث التي قام بها خبراء أفذاذ في الفيزياء والكيمياء أمثال (لورنتز Lorentz) و (أينشتاين Einstein) وغيرهما أبرزوا فيها الوحدة الحركية للعالم (unité énerge'tique) والتواكب بين الفيزياء وعلم الأحياء (bologie) من جهة وعلم النفس أو السيكولوجية من جهة أخرى فاتضح أن كثيرا من الانظار التي تكدست وتبلورت في الفكر البشري مع الزمن ليست سوى عناصر اختلفها هذا الفكر ولكن يجب أن لانذهب بعيدا في هذه الاستنتاجات بل نقتصر في مرحلة أولى على تصور عكسي لتضاد هذين العنصرين مع رعاية حقيقة وأهمية الوصلة الرابطة بينهما انتظارا للقرار النهائي للعلم الحديث ولنا كبير أمل في أن ثورة التكنولوجية الصارمة ستستأصل هذه القيم الوهمية التي حجرتها في نفوس الناس تجربة سطحية عبر أجيال والعامل الواقعي الذي تحقق لحد الان هو فكرة التكامل بين ظواهر كانت تعتبر لحد الان متعارضة والفضل في ذلك يرجع أيضا الى كل من العالمين (هيزنبرغ W. Heisenberg) و (نيبلس توصلا الى حقائق تمكن الانسان من ادراك أبعاد ماكان يراه متعارضا أو غير مفهوم.

وقد عزز ثلاثة علماء آخرون هم (هولكر هيدرن Holgar Hydern) و ايجاهـــــازي Egyhasie) و (الفريدهيرمان Alfred Herrman) ماأكده (لنسن) في كتابه المذكور (م 55) من أن الكهرب (électron) هو الوسيط الأمثل بين قطبي العالم وهما الفيزياء من جهة والسيكولوجي أو الروحانية من جهة أخرى، ومعنى وجود ذلك تواكب بين ذاكرة العقول الالكترونية وعقل الانسان أو مسارات (السيبيرنيتيك Cyberne'tique وهي مجموعة النظريات الاعلامية المتعلقة بالمواصلات والدقة في الانظمة الحية أو غير الحية التي يتجه نشاطها نحو تكييف حسب القصد ومسارات الفكر الانساني وقد جرؤ العالم الفيزيائي (هيرمان) على القول في اقتناع كامل . بأن الكهرب . الذي هو العنصر المحرك لكل ماهو حي لايعتبر «الوحدة المادية الوحيدة التي يمكن أن تحقق التواصل المباشر مع السيكولوجية الفردية وكذلك الكونية «فما هي إذن طبيعة الحركية التي يركزها هذا الكهرب؟ إن هنالك حقيقة قائمة وهي أن المادة التي ليست سوى نوع من الحركية أي جزيئات تصل اهتزازاتها الى ملايين بل ملايير وحدة في الثانية تكشف عن حقيقة مازالت غامض وهي اتسام المادية بنوع من الروحانية وقد أجمع عدد متزايد من العلماء والمفكرين على أن العالم أشبه بفكرة كبرى منه بآلية تتحرك دواليبها بالصدفة بل إن رجالات آخرين أمثال العالم الانجليزي (لاودن D. lawden والرياضي - الفيلسوف (لوباسكو Stephane) والرياضي الكيميائي (تورنير Tournaire) والفيزيائي (ديراك P.A.M. Dira) والدكتور (كوديل Roger Godel) و (روبير اوبينهمر R. Oppenheimer) و (شاردن Teilhard de chrdin) و (شوسارد Chauchard) وغيرهم . قد كشفوا عن بداهة بعض كفاءات الذاكرة والفكر لافي المادة المنتظمة فقط بل حتى في المادة غير المنتظمة.

وهنالك خبراء في الفيزياء النووية مثل (هيرمان) و (لاودن) تحدثوا بوضوح على سيكولوجية الكهرب (psychiome de l'électron) (م 109) وقد تطور العلم بسرعة منذ عام (1925) حيث تقدم الامير (لوي دوبروكلي Louis de Broglie بنظريته حول عالم ذي أبعاد خمسة أو سبعة (هي تصميم منطقي لمفهوم النسبية لدى اينشتاين) وأعقبه (إلياد Mircéa Eliade) (الأستاذ في جامعة شيكاغو) بفكرته حول وجود حقيقة غير زمنية وراء الحيزات الزمنية espace-temps المكانية وقد تمخض هذا التطور عن «رياضيات ماورائية» (méta mathématique) ستصبح (علم المستقبل) الذي اتجهت اليه أنظار العلماء نظرا لكشفه عن مجال مغاير للمجال العادي الذي تسبح فيه العمليات الذهنية ولكشفه ايضا عن أبعاد جديدة تسندها الفكرة التي انطلق منها المؤتمر العالمي للفيزياء في (بيكن Pekin (عام 1966) للدلالة على وجود أشكال بليغة الدقة واللطافة للحركية (énergie) انتقلوا منها الى تقعيد دليل اخر على وجود «هيكلية سيكولوجية عليا» super structure psychologique تجمع بين مقومات الفرد أوقوام الكون على أن فكرة تعدد الابعاد الزمنية (dimensions-temps) قد أصبحت واضحة بفضل تطور العلوم النووية التي تحققت في ظلها تجربة قادت بعض رواد السفن الفضائية الى استصحاب قطة في جولتهم عبر الفضاء لاحظوا إثرها أن هذه القطة هرمت قبل الاوان وأناف عمرها على عمر أمها التي بقيت على ظهر البسيطة وقد استنتج العلماء من ذلك أن الزمن يختلف بين طبقات الكون وأن أبعاده تتعدد في شتى العوالم وهذه النظرية المعروفة بنظرية النسبية (عند اينشتاين) هي التي أشار اليها القرآن الكريم عند تمييزه بين (اليوم الرباني) (ويوم المعراج) في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) وقوله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون).

والنتيجة الحتمية لهذه الدراسات هي إذن ظاهرة ستقلب أوضاع الفكر البشري بابرازها لوحدة الروح والمادة أو لروحانية المادة ومادية الروح وهو سر التوازن لدى الانسان الذي اكتملت انسانيته فلم يعد جانب يطغى على آخر في سلوكه العقلاني الوجداني.